تاريخ الاستلام: 2022/12/20م تاريخ القبول: 2022/12/30م تاريخ النشر: 2022/12/31م

# جماليّات فنّ الالتفات ( دراسة تطبيقيّة على بعض الآيات القرآنيّة والأبيات الشعريّة )

**د. ربيعة أبو القاسم الواعر**

**قسم اللغة العربيّة–كلية التربية بأبي عيسى**

**جامعة الزاوية**

**الملخص:**

يعد أسلوب الالتفات من الأساليب البديعية الرائعة التشويقية في انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار .

وعن الإخبار إلى المخاطبة أي الانصراف عن معنى يكون فيه معنى آخر ومن هذا التشويق كان اختيارنا لهذا الموضوع في شرح البعض من آيات القرآن الكريم وتحليلها بلاغيا مدعوما ببعض الأبيات الشعرية تحث كل اية تحمل نوع من أنواع هذا الفن الجميل وقد قسمنا البحث إلى مقدمه وتمهيد وثلاث مباحث والهدف من دراسة هذا الموضوع ازالة بعض اللبس والغموض الذي لم يوضح في بعض الدراسات السابقة كذالك ربط بعض ايات القرآن والشعر في فن واحد لم يسبق دراسته من خلال إطلاعي على البعض من تلك الدراسات وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية :

1 : اسلوب الإلتفات يختص باللغة العربية دون غيرها وكذالك يسمى بالشجاعة العربية.

2 : رفع السامة من الاستمرار على ضمير متكلم أو مخاطب.

3 : يعد الإلتفات ضرورة من ضروريات الشعر وذالك لما يمتلكه من مرونة تجعله مناسبا للتحول من حالة إلى حالة أخرى .

4 : من خلال الإلتفات الزمنى الذي وجد في كثير من أيات القرآن وبعض نصوص الشعر والتي منحت تلك النصوص مرونة أكثر وانعكس ذالك في إستقبال المتلقي للتغيرات والتحولات الزمنية التي وردت في الآيات والشعر لإثبات أمر أو نفيه أو الترغيب أو الترهيب منه الإلتفات الرائع و انسياق المتلقي خلفه دون خوف أو ملل.

**Research promotion titled:**

The style of paying attention is one of the creative, wonderful and exciting methods in the departure of the speaker from addressing to informing

And from informing to addressing, i.e. turning away from a meaning in which there is another meaning, and from this suspense, our choice of this subject was to explain some of the verses of the Holy Qur'an and analyze them rhetorically, supported by some poetic verses, urging each verse to carry a kind of this beautiful art. We divided the research into an introduction, a preface, and three topics. The aim of studying this topic is to remove some confusion and ambiguity that was not clarified in some previous studies, as well as linking Some of the verses of the Qur'an and poetry in one art that has not been previously studied by showing me some of these studies. Through this study, I reached the following results:

1 The style of attention is specific to the Arabic language and not to others, and it is also called Arabic bravery.

2 Raise the poison from continuing on the pronoun of the speaker or the addressee.

3 Attention is considered one of the necessities of poetry, due to the flexibility it possesses that makes it suitable for transitioning from one state to another.

4 Through the temporal attention that was found in many verses of the Qur'an and some texts of poetry, which gave those texts more flexibility and that was reflected in the receiver's reception of the temporal changes and shifts that were mentioned in the verses and poetry to prove an order or deny it or encourage or intimidate it. without fear or boredom.

**المقدّمة:**

يُعَدّ أسلوب الالتفات فنّاً بديعيّاً من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب، وهذا الأسلوب في الانتقال في الكلام يرى الكثير من علماء البلاغة أنّه أهمّ غرض لرفع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلّم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب أو الغيبة أو العكس، وبعبارةٍ مختصرةٍ فإنَّ الالتفات يقصد منه نقل الكلام من أسلوبٍ إلى آخر[1]، ومن هذا المنطلق كان اختيارنا لموضوع الالتفات، ونخصّ بالذكر العنوان الذي يحمل شرح بعضٍ من آيات القرآن الكريم وتحليلها بلاغيّاً بما يخدم هذا الغرض مدعوماً ببعض أبيات الشعر خلف كلّ نوع من تلك الأنواع البلاغيّة، وقد كانت أغلب الأمثلة الشعريّة من شعر العصر الجاهليّ؛ وذلك لكثرة اهتمامي بهذا النوع، وقد قسّمت البحث إلى مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ونتائج، فاحتوى التمهيد على تعريف الالتفات وفائدته، أمّا المبحث الأوّل فقد درس الالتفات الفعليّ بكل أنواعه مؤيّداً بكثيرٍ من الأمثلة، وفصّل المبحث الثاني الالتفات العدديّ وترتيباته بين القرآن والشعر، أمّا المبحث الثالث فتناول دراسة الالتفات العدديّ (الضميريّ)، الذي حاولت بشقّ الأنفس الحصول على أمثلة تطبيقيّةً له من الشعر؛ لأن أمثلة الآيات القرآنيّة كان من السهل الحصول عليها، ثم ذيّلتُ البحث بخاتمة ونتائج وبعض التوصيات. وعلى الرغم من بعض الصعوبات التي واجهتني في تطبيق الكثير من الأمثلة فقد استطعت الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه لاستكماله وإيصاله إلى هدفه بصورةٍ صحيحة، فإن كان صواباً فهو بتوفيقٍ من الله وإن أصابه الخطأ والزلل فنحن بشر.

**تمهيد:**

اللغة العربيّة زاخرة بالأساليب البلاغيّة القادرة على تجاوز أمثال هذه العقبات، والارتقاء بمستوى الأداء الخطابيّ ليصل بكلّ سهولةٍ ويسرٍ لأسماع الحاضرين وعقولهم ليتحقّق الإمتاع اللفظيّ والعقليّ في آنٍ واحدٍ للسامعين، لذلك يجب على كلّ خطيبٍ أو شاعر معرفة هذه الأساليب والتمكّن من تفعيلها؛ لتحقيق مراد الكلام الملقى للسامعين، ومنها أسلوب الالتفات، يقول أبو عبيدة في مقدّمة مجاز القرآن: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها الشاهد[2]، قول الله – تعالى –: ﴿أَلم ذلِكَ الْكِتَابُ﴾[3]، فهنا التفات رائع من مخاطبة الغائب فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض؛ لأنّ الكلام المتوالي على

ضميرٍ واحدٍ لا يُستطاب. ولعلّ هذا الغرض هو من أهمّ الأغراض، وقد عدّه ابن المعتزّ من محاسن الكلام وبديعه، فيقول: "الالتفات هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، أو الانصراف عن الخطاب إلى الغيبة[4]، ومن الغيبة إلى التكلّم[5] وذلك كقول الله – تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىَ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِكُم بِرِيْحٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٍ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَان وَظَنَّوُا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِّيْن لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الْشَّاكِرِيْن﴾[6]، فالالتفات في الآية الكريمة في قوله – تعالى -: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾، يقول ابن الأثير: "فإنّما صرف الكلام هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدةٍ، وهي أنّه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها المخبر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو أنّه قال إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريحٍ طيّبةٍ وفرحتم بها وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة"[7]، ومنه أيضاً انصراف المتكلّم عن معنىً إلى معنىً آخر، وذلك كقول أبي تمام:

وأنجدتم من بعد إتهامِ داركمُ        فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نجْدِ[8]

تكمن روعة الالتفات في هذا البيت حين يكون المنقذ من الموقف والألم ليس إنساناً أو قوّةً ما، بل يكون الدمع الذي يُطلب منه ذلك: (فيا دمعُ)، هنا التفات ثانٍ قبل الأوّل حين ينادي الدمع، وقد أتى بالالتفات في الشطر الأوّل للأحباب الذين سكنوا تهامة ثمّ ارتحلوا إلى نجد، ولعلّ الدمع يطفئ بعض لهيب الفراق، ولعلّ الأصمعيّ أوّل من ذكر الالتفات فهو يحدّث إسحاق الموصلي، أتعرف التفات جرير؟ قال: قلت وما هو؟ فأنشدني قوله:

أَتَنْسَى إذْ تودّعُنَا سُليمى        بِعُود بشَامةٍ؟ سُقِيَ البشامُ[9]

أما تراه مقبلاً على شعره إلى البشام فذكره فدعا له[10]، وهذا من أنواع الالتفات التي لا يدركها إلّا الفطن في اللغة العربيّة، ولذلك ذكر ابن رشيق في كتابه العمدة بعض مُثل للالتفات أوردها ابن المعتزّ في باب الاعتراض، كما نقل ابن رشيق مثلاً للالتفات ذكرها ابن المعتزّ في باب الالتفات، وقال آخرون: هو الاستدراك، وحكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنىً ثمّ يعرض له معنىً غيره فيعدل عن الأوّل إلى الثاني فيأتي به ثمّ يعود إلى الأمر الأوّل من غير أن يخل في شيءٍ ممّا يشد الأوّل[11]وسنأتي على دراسة هذا النوع لاحقاً.

1. **الالتفات لغةً:** يَعُدّ ابن الأثير الالتفات من فنون البديع المعنويّ ويبيّن حقيقته فيقول: "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا، وكذلك يكون النوع من الكلام خاصةً؛ لأنّه ينتقل فيه عن صيغةٍ إلى صيغةٍ كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ومن خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ[12] أو عدد أو ضمير وغيرها، وهو من الفعل لفت، وهو بمعنى اللّي وصرف الشيء عن جهته، يقول صاحب لسان العرب: لفت وجهه عن القوم، أي: صرفه، وتلفّت إلى الشيء والتفت إليه، واللّفت لَيّ الشيء عن جهته[13]، وجاء في القرآن الكريم:﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[14]، فقد أمروا بترك الالتفات بوجوههم لئلّا يروا عظيم ما نزل بالقوم من العذاب، كما ورد ذلك في قوله – تعالى –: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[15]، أي لتصرفنا عمّا وجدنا عليه آباءنا من المعتقدات والأفعال، كما ورد لفظ الالتفات في الحديث النبويّ بمعنى اللّي والصرف، صرف الوجه يمنةً ويسرةً في الصلاة إلى جهةٍ خارجها، فعن عائشة– رضي الله عنها– قالت: سألت رسول الله– صلّى الله عليه وسلم– عن الالتفات في الصلاة، فقال:" هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد".
2. **الالتفات اصطلاحاً:** هو ظاهرةٌ أسلوبيّةٌ تعتمد على انتهاك النسق اللغويّ المعروف وتجاوزه معتمداً على الانزياح من خلال المطابقة، وهو الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغةٍ أخرى من هذه الصيغ، بشرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر على الملتفت عنه، بمعنى أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأوّل، أي أنّه من التحويل في التعبير الكلاميّ من اتّجاهٍ إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: (التكلّم، الخطاب، الغيبة) مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوّل عنها كقول المعطل الهذليّ:

تبين صُلاةُ الْحَرْبِ مِنَّا وَمِنْهُمو إِذَا مَا الْتَقَيْنَا وَالمُسَالِمُ بادن[16]

فالالتفات في وصف صُلاة الحرب، والالتفات الأوّل كان في قوله: (والمسالم بادن)، فقد رجع الشاعر عن المعنى الأوّل حين قال في آخر البيت ما ذكرناه، وقد عرّفه ابن

المعتزّ بقوله: "هو انصراف المتكلّم، عن الإخبار عن المخاطبة إلى الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنىً يكون فيه إلى معنىً آخر"[17]، ومن خلال هذا التعريف فإنّ الالتفات عنده يشمل شيئين: أوّلهما ما يعني الالتفات عند المتأخّر، والثاني نوع من الاعتراض[18]، وابن المعتزّ في الشقّ الأوّل من تعريفه للالتفات سبقه إليه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، وإن كان أبو عبيدة لم يعطه الاسم البديعيّ الذي سمّاه به ابن المعتزّ، يقول في مقدّمته مجاز القرآن:" ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها الشاهد قول الله – تعالى –: ﴿أَلم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ مجازه: هذا القرآن"[19]، وأضاف بعض علماء البلاغة إلى ما اشتمل عليه هذا التعريف التعبير بواحدة من هذه الطرق إذا كان على خلاف مقتضى الظاهر، كأن يتحدّث المتكلم عن نفسه بأسلوب الخطاب الذي يخاطب به غيره، أو يتحدّث مع من يخاطبه بأسلوب التكلّم عن الغائب، أو يتحدّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب، أو يتحدّث عن الغائب بأسلوب الخطاب، كقوله – تعالى–: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[20]، فالالتفات هنا جاء خبراً عن غائبٍ، ثمّ خوطب الشاهد وهكذا، ومنه حديث الله– عزَّ وجل– عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[21]، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وإذ قلتُ للملائكة، ومنه أيضاً قوله – تعالى –: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[22]، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (عَبَسْتَ وَتَوَلّيْتَ أن جَاءَكَ الأعمى)، وقد أوضح ابن الأثير مفهوم الالتفات حين قال: "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يُقبل بوجهه تارةً كذا، وتارةً كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصّة؛ لأنّه ينتقل فيه من صيغةٍ إلى صيغةٍ[23]، وبذلك يكون أهمّ غرض للالتفات هو رفع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلّم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، ومن المتكلّم إلى الخطاب أو الغيبة، أو الانتقال بالأعداد والضمائر فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض؛ لأنّ الكلام المتوالي على ضميرٍ واحدٍ لا يُستطاب، ومن أمثلته في الشعر قول جرير:

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِي الأراكِ فَهاجَنِي ... لا زِلْتَ في غَلَلٍ وأَيْكٍ ناضرِ[24]

شَبَّهْتُ مَنْزِلَـةً بَـراحَ، وقَـدْ أَتَـى ... حولُ المُحِيلِ خِلالَ جفنٍ داثرِ[25]

وعلماء العرب يلقّبون أسلوب الالتفات بالشجاعة العربيّة، أي أنّ للعرب شجاعة أدبيّة بيانيّة استطاعوا بها أن يفاجئوا المتلقّي بالتنقّل بين طرق الكلام الثلاثة (التكلّم، الخطاب، الغيبة)، مشيرين بذلك إلى أغراضٍ بلاغيّةٍ أخرى يريدون التنبيه عليها بذلك، وهو ضربٌ بارعٌ من الصياغة، ينطوي على قدرٍ من التمويه الناتج عن كسر سياق التوقّع لدى المتلقّي، وذلك في التحوّل من جهةٍ إلى أخرى، وتتّخذ معه الحقائق أشكالاً لها معانٍ مختلفة، الأمر الذي دفع الكثير من شعراء العصر الجاهليّ إلى أن يعتمدوه في شعرهم، ليمنحهم مستوىً عالياً من الإيحاء والإثارة، والالتفات من الأساليب البلاغيّة ذات اللّطائف النفسيّة كالعتاب، الذي ورد في قوله – تعالى –:﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[26]، فالالتفات في قوله: (إِنْ تَتُوْبَا)، انتقل من الغيبة إلى الخطاب وهو معنى العتاب، أي لم يكن زجراً ولا نهياً وهذه روعة الآيات وبلاغتها، ومنه أيضاً صرف السائل بالجواب عن سؤالٍ لم يسأله، ومثاله أنّه قيل لرجلٍ هرم:" كم سنّك؟ فقال: إنّي أنعم بالعافية"[27]، فالالتفات جاء في جواب الشيخ الهرم الذي لم يكن جواباً عن السؤال الموجّه إليه وإنّما صرفه عن سؤالٍ لم يوجّه إليه، فالالتفات له إشعارٌ للسائل بأنّه ليس هكذا يجب أن يكون السؤال. إذاً الالتفات فنّ بديع القول يشبه تحريك آلات التصوير السنيمائيّ بنقلها من مشهدٍ إلى مشهدٍ آخر في المختلفات والمتباعدات التي يُراد عرض صورٍ منها، ومفاجأة المشاهد بلقطات منها متباعدات، ولكنّها تدخل في الإطار الكليّ الذي يُراد عرض طائفة من مشاهده تدلُّ على ما يقصد الإعلام به، ويُرضي أذواق الجميع، كقول أبي تمّام في انصراف المتكلّم عن معنى إلى معنى آخر، وحسن استخدام أسلوب الالتفات بلاغيّاً له فوائد في نفس المتلقّي أو فكره وخلق الابداع عنده، مع ما يحقّقه من الاقتصاد والإيجاز في العبارة.

**فائدة الالتفات:**

1. صيانة السمع من الضجرِ والملل فإنَّ النفوس جُبلت على حُبِّ التنقّلِ، والاستمرار على منوالٍ واحدٍ من الخِطاب يؤدّي إلى السآمة، وقد نُقِلَ عن البيانيين قولهم: "إنَّ الكلامَ إذا جاء على أسلوبٍ واحدٍ وطال، حَسُنَ تغيير الطريقة"[28].
2. إظهار الملكة في الكلام والاقتدار على التصرّف فيه.
3. تتميم معنى مقصود للمتكلّم، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ *أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ*رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[29]، فالالتفات في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وأصل الكلام: إنّا مرسلين رحمة منّا، ولكنّه وضع الظاهر ﴿ مِنْ رِبِّكَ﴾ موضع المضمر (منَّا)؛ للإنذار بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين[30].

**أقسام الالتفات: ينقسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام هي:**

1. المبحث الأوّل: الالتفات الفعليّ: وهذا النوع يقع بين صيغ الأفعال، وذلك مثل الالتفات من المضارع إلى الأمر، ومن الماضي إلى الأمر، ومن الماضي إلى المضارع ومن المضارع إلى الماضي ويكون كالتالي:

أ. الالتفات من الماضي إلى الأمر كنحو قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[31]، فالالتفات في قوله: ﴿وَأَقِيْمُوا﴾ بصيغة الأمر وذلك بعد قوله: (أَمَرَ) بالفعل الماضي، وكان تقدير الكلام أمر ربّي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كلّ مسجد، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإنّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصحّ إلّا بإخلاص النيّة[32].

ومنه قول جرير:

مَتَى كَانَ الخيَامُ بِذي طُلُوحٍ –سُقيتِ الغيثَ– أيَّتُها الخيامُ؟

روعة الالتفات هنا الجملة الاعتراضيّة– سُقيت الغيثَ– ولو كان بيت الشعر بدونها لما كان التفاتاً أصلاً، وكان الكلام نظم شعر لا غير، وبوجود هذه الجملة– سُقيتِ الغيثَ– تحقّق التفات فعليّ مكّن الشاعر من تشويق السامع ولفت انتباهه بعد أن كان المتلقّي يعلم أنّه نظم شعر عادي، فلفته الشاعر وصرف تفكيره بالجملة الاعتراضيّة.

ب. الالتفات من المضارع إلى الأمر: وذلك كنحو قوله – تعالى –: ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ* إِنْ نَقُوْلُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتَنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّه وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[33]، فالالتفات في الآية في قوله – تعالى –: (وَاشْهَدُوا) بصيغة الأمر، وذلك بعد قوله: (أُشْهِدُوا الله) بصيغة المضارع ولم يقل وأُشْهِدكم؛ ليكون موازناً له وبمعناه؛ لأنّ إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأمّا إشهادهم فما هو إلّا تهاون ودلالة على قلّة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أنّي أحبّك تهكّماً به واستهانةً بحاله حتّى لا يعود لمثل أعماله، والالتفات هنا جاء في موضعه وبيّن مكان وحقّ كلّ الفريقين، ومنه قول طرفة بن العبد:

فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ منيَّتِي فَذَرْني أُبادرها بِما ملكتْ يدي[34]

يكشف لنا هذا البيت عن فلسفة طرفة في الحياة والموت، وإيمانه بأن لا أحد يستطيع ردّ الموت عنه، كما لا يستطيع أحدٌ أن يخلّده[35]، فالتفت الشاعر من الفعل المضارع (تسطيع) إلى فعل الأمر(ذرني)، ليبيّن لنا ممارسته متع الحياة ولذّاتها، وهي استجابة سلبيّة وفقاً لمقاييس اجتماعيّة يظهر أنّها سادت المجتمع الجاهليّ نفسه، والغرض من الالتفات هنا رفع اللوم والعتاب؛ لأنّه في نظر نفسه كريم غير مخطئ، إنّما تجنّب قومه له هو ما أوجع قلبه وأدماه.

ج. الالتفات من الماضي إلى المضارع: وذلك كقول الله – تعالى –:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْن مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقَا تَقْتُلُونَ﴾[36]، البديع الرائع من الالتفات هو التعبير عن الحديث الذي قد مضى بصيغة المضارع، ففي المقطع الأخير من الآية ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقَا تَقْتُلُونَ﴾، عبّر عن القتل بصيغة المضارع وهو موضوع الالتفات، فلو قال: (وفريقاً قتلتم) هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية؛ لأنّ الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب، وإن يراد: وفريقاً تقتلوهم بعد لأنّكم تحومون حول قتل محمّد – صلى الله عليه

وسلم- لولا أنّي أعصمه منكم[37]، فالتعبير بالمضارع أوكد وأشدّ؛ لأنّ فيه استحضار الفعل حتى كأنّ السامع ينظر إلى الفاعل في حال وجود الفعل، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنّه لا يتخيّل السامع منه إلّا فعلاً قد مضى من غير إحضارٍ للصورة في حال سماع الكلام الدالّ عليه، وهذا النوع من الالتفات أبلغ الأنواع في الأفعال، ومنه قول امرئ القيس في وصف الليل الذي طالت ساعاته وزاد قلقه وحيرته وهو يتمدّد:

فَقُلْتُ له لمَّا تمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

فالالتفات من الفعل الماضي (قلت)، وهو يحدّث نفسه في تلك الساعات المتأخّرة من الليل إلى الالتفات الرائع في الفعل المضارع (تمطّى)، أي تمدّد، وهي مأخوذة من المطا وهو مدّ الظهر، فاستعار للّيل لفظ الصلب واستعار لطوله لفظ التمطّي ليلائم الصلب، واستعار لأوائله لفظ الكلكل ولمآخيره الإعجاز؛ لتتلاءم هذه الألفاظ مع الالتفات وشدّ الانتباه عند السامع ليشعره بحرّة قلبه وكثرة وجعه وهو من الالتفات الفريد عند الشعراء.

د. الالتفات من المضارع إلى الماضي: وذلك كنحو قوله – تعالى –: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي الْسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِيْنَ﴾[38]، فقد عبّر في هذه الآية عن المستقبل بصيغة الماضي فقال: (ففزع) بلفظ الماضي بعد قوله: (ينفخ) وهو مضارع إشعاراً بتحقيق الفزع وثبوته، وأنّه كائن لا محالة، وواقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدلّ على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به[39]، وفائدته أنّ الفعل الماضي إذا أخذ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنّه قد كان ووُجد، وإنّما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها[40]، وهذا الوجود في هذه الآية لعب دوراً بارزاً في إظهار الالتفات الذي أراد الله- سبحانه- بيانه للعباد، ومنه قول الشاعر عمرو بن كلثوم يفتخر ويعتدُّ بأخيه مرَّة بن كُلثوم:

ولمْ تَرَ عَيْني مثلُ مُرَّةَ فَارِساً غَدَاةَ دَعَا السَّفاحُ يا لَبني الْشَّجَبِ[41]

فالالتفات جاء من الفعل المضارع (ترى) حيث ترك الكلام والتفت للفعل الماضي (دعا) والغرض هنا الفخر.

هـ. الالتفات من الأمر إلى المضارع وذلك كقوله – تعالى –: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيْعَاً فَإِمَّا يـأتِيَنَّكُمْ مِنِّـي هُـدَىً﴾[42]، فالالتفـات فـي الآيـة يتمثّـل فـي الانتقـال مـن فعـل الأمر(اهبطوا) إلى الفعل المضارع (يأتي)، والغرض منه انتظار الهداية والأمل في إيمانهم وتخييرهم بين الأمرين. ومنه أيضاً قول الشاعر عمرو بن كلثوم:

قِفِـي قَبْـلَ التَّفَـرُّق يَـا ظَعِيْنَا نُخَبِّـرْكِ الْيَقِيـنَ وَتُخْبِرِيْنَـا

قِفِي نَسْأَلكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صرْمَاً لِوَشْكِ الْبَيْنِ أَمْ خُنْـتِ الْأَمِينَا[43]

فالالتفات الفعليّ في البيتين كالآتي: التفت من فعل الأمر (قفي) إلى الفعل المضارع (نخبرك، وتخبرينا)، أمّا البيت الثاني فكان التفاته: من (قفي) فعل الأمر أيضاً، إلى الفعل المضارع (نسألك)، مع زيادة الفعل الماضي (خنتِ)؛ لأنّ الرجوع إلى الماضي هنا أشدّ بلاغةً مع وجود الفعلين الماضي والأمر. وقوله: (يا ظعينا): منادى مرخَّم، والمعنى هنا يستوقف الشاعر في مقدّمته الطلليّة على عادة الشعراء حبيبته وقد أحسّ بألم الفراق شاكياً لها ما أصابه من الهموم والألم بسبب البعد والترحال، وبالمقابل فإنّ الشاعر سوف يكشف لها ما وقع من الأحداث بعد هذه الفترة، وهذا الفراق أدّى إلى القطيعة أو الخيانة، إذن التركيب السطحيّ لهذين البيتين المكوّنين من الالتفات الفعليّ بين الأفعال مناسب تماماً لما يريده الشاعر، حيث استخدم كلّ صيغ الأفعال(الماضي والمضارع والأمر)، وكأنّه بهذا الأسلوب أراد أن يبحث في كلّ الجوانب والنواحي والأوقات لكي يتأكّد من صدق مودّتها له[44]، والغرض من الالتفات التحبيب عند ترخيمه للاسم والفخر؛ لأنّ المعنى أيّتها الراحلة في هودجها تريّثي قليلاً لنتشاكى ما أصابنا من الحبّ والأشواق، فهلّا وقفتِ لنسألك هل أملى عليك هذا الهجر اضطرارك لسرعة الفراق؟ أم أنّكِ لا تثقين بمن ائتمنه على سرّك[45]؟!.

و. الالتفات من الأمر إلى الماضي، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أَلاَ أَبْلِغِ النُّعمانَ عنّي رسالـةً فَمَدْحُكَ حوليٌّ وذَمُّكَ قـارحُ[46]

فالالتفات في فعل الأمر (أبلغ) إلى الماضي مدحك وذمك، والمعنى أبلغوا عنّي النعمان بن المنذر هذه الرسالة إذ مدحه لا يقرّ إلّا قليلاً وهجاؤه هو المقيم، ولو عرفني حقّ

المعرفة وعرف قبيلتي تغلب، عرف أنّنا نهدّده بجموعنا كلّ حين، والغرض من الالتفات التهديد والوعيد بالهلاك والفناء.

2. **المبحث الثاني:** الالتفات العدديّ: وهو الانتقال من الجمع إلى المفرد أو من المفرد إلى الجمع أو من المثنّى إلى الجمع أو العكس، ويكون كالآتي:

أ. الانتقال من الجمع إلى المفرد كقوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيْقٍ وَكَأسٍ مِنْ مَعِيْنٍ﴾[47]، فالجمع قوله – تعالى –: ﴿أكواب وأباريق﴾، ثمّ التفت إلى المفرد (وكأس)، ولم يقل كؤوس؛ لأنّ الكأسَ إناء فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس، بل قدح والقدح إذا جُعل فيه الشراب، فالاعتبار للشراب لا لإنائه؛ لأنّ المقصود هو المشروب، والظرف اتّخذ للآلة، ولولا الشراب والحاجة إلى شربه لما اتُّخذَ، والقدح مصنوع، والشراب جنس، فلو قال: (كؤوس) لكان اعتبِر حال القدح، والقدح تبع، ولما لم يجمع اعتبر حال الشراب، وهو أصل، واعتبار الأصل أولى وهنا كان اختيار الأحسن من الألفاظ، وهنا تكمن روعة الالتفات، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾[48]، فالالتفات في الفعل (اهبطوا) بصيغة الجمع، إلى الأرض إلى أن تأتيكم الهداية، إلى الالتفات بصيغة المفرد (منّي) الحرف، وهذا من إعجاز القرآن، ومنه قول عنترة ابن شداد العبسيّ:

هل غادرَ الشعراء من متردّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهّم[49]

الجمع (غادر الشعراء)، المفرد (عرفت)، فجاء في صدر البيت غادر الشعراء بصيغة الجمع، إذ إنّه قصد بكلامه هل رحل الشعراء من بين الأموات؟[50] أي أنّه خاطب مجموعة من الشعراء، ثم التفت إلى المرسل إليه المفرد (عرفت) في عجز البيت، أم عرفت المنزل بعد وهم؟ التفت إلى المفرد المخاطب، إذ عدل عن أسلوب الجمع إلى المفرد، وهذا الالتفات يكمن فيه النوع الضميريّ؛ لأنّه في الوقت نفسه عدل من أسلوب الغيبة إلى الخطاب.

ب. الانتقال من المفرد إلى الجمع، قوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[51]،انتقل من الواحد (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) إلى الالتفات لمخاطبة الجمع (فَطَلِّقُوهُنَّ) أي من الواحد إلى الجماعة، ومنه قول عنترة أيضاً:

وَتحلُّ عبلةُ بالجوَاءِ وأهْلُنَا بالحزن فالصَّمَّانِ فَالمتثَلِّمِ[52]

حيث انتقل الشاعر من المفرد (تحلّ عبلة) المفردة المؤنّثة في صدر البيت، أمّا في عجز البيت فانتقل الشاعر إلى لفظ (أهلنا) الجمع، وفي هذا الاهتمام تحوّل نوعيّ؛ لأنّه في الوقت نفسه تغيّر من أسلوب الغيبة إلى الخطاب، أي كأنّه يوحي بذلك إلى جمع شمله مع حبيبته، فهو يشعر بالوحدة لكنّه تحاشى الأسلوب المفرد، ولم يقل أهلي تعويضاً عن فراق الحبيبة التي حلّت بعيدة عن الشاعر والتي زادت من معاناته. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أَلاَ هُبِّي بَصِحْنكِ فَاصْبَحِيْنَا ولاَ تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِيْنَا

فانتقل الشاعر من خطاب الواحد (هبّي) إلى خطاب الجمع (اصبحينا) أي قومي فقدّمي لنا الصَّبوح من أجود الخمر من صُنع الأندرين، والغرض من الالتفات الفخر والتخصيص به دون غيره.

ج. الانتقال من المثنّى إلى الجمع، قوله – تعالى –: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[53]، فالالتفات في " تَبَوَّءا" العدد اثنان، فالتفت إلى الجمع" وَاجْعَلوا بُيُوتَكُمْ"، ومنه قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكرىَ حَبِيبٍ ومنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدخُولِ فَحَوْمَلِ[54]

يستحضر الشاعر مع الاثنين جماعة ليبكوا معه، وهذا التفات بديعيّ أتى به قبل أن يبدأ في الكلام ويخبر المتلقّي عمّا يجول في خاطره، فالالتفات العدديّ يكمن في قوله:(قفا، نبك)، المثنّى (قِفَا)، الجمع (نبكي)؛ لأنّه من عادة الشعراء الجاهليين أن يستوقفوا صحبهم ويبكوا الأطلال والدمن، والشاعر هنا طلب من صاحبيه التمهّل في السير وأن يبكيا معه الحبيبة التي فارقته ومنزلاً خرجت منه، فالتفت إلى صيغة الجمع في البكاء، وكأنّه أراد بهذا الأسلوب الالتفات له ومشاركته الوجدانيّة لدى المتلقي، لفهم ما يكابده من ألم فراق الحبيبة والديار، والغرض منه التحسّر والألم.

د. الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين: وذلك كقوله – تعالى –: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ﴾[55]، ففي هذه الآية التفات من خطاب الواحد في قوله – تعالى –: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ إلى خطاب التثنية في قوله: ﴿وَتَكُوْنَ لَكُمَا﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُما﴾[56]،

وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده باعتبار شمول الكبرياء لهما (موسى وهارون) –عليهما السلام– المراد بضمير المخاطب، واستلزام التصديق لأحدهما بتصديق للآخر، وإنما لم يفرد موسى – عليه السلام – كما أفردوه فيما تقدّم؛ لأنه المشافهة لهم بالتوبيخ والإنكار، أمّا إفراده في أوّل الآية بالخطاب؛ فلأنّه هو الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة ثمّ أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنّهم بهما في الغاية من عملهما[57]، ومنها قول عبد يغوث الحارثيّ:

فَيَا رَاكِبَاً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَن ندامَايَ مِن نَجْرَانَ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا[58]

فالشاعر التفت من خطاب الواحد (يا راكباً) إلى خطاب الاثنين (نداماي) لغرض التحسّر والألم الذي يعانيه.

هـ. الالتفات من خطاب الاثنين إلى الواحد: وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[59]، فالالتفات من خطاب الاثنين (يُخْرِجَنَّكُمَا) إلى خطاب الواحد (فَتَشْقَى)، وغرضه النهي، ومنه قوله – تعالى –: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوْسَىَ﴾[60]، فالالتفات في هذه الآية من خطاب الاثنين في (رَبُّكُمَا) إلى خطاب الواحد في قوله: (يَا مُوسَىَ) فتخصيص النداء بموسى – عليه السلام – مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهر له من أنّه الأصل في الرسالة وهارون ووزيره وتابعه، أو لأنّ فرعون عرف أنّ لموسى رنّة (لعثة) ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه[61]، وتلك حكاية منذ طفولته– عليه السلام–*[62]، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ لاَ تَلُوْمَانِي كَفَى اللَّوْمُ مَا بِيَا ومَا لَكُما في اللّومِ خَيْرُ وَلاَ لِيَا[63]

التفت الشاعر من خطاب الاثنين (تلوماني، لكما) إلى خطاب الواحد(بيا، ليا) أي الحديث عن نفسه، وهو من روائع البديع وأجملها، والمعنى أنّه يطلب من أحد المارّة الراكبين أن يبلّغ صديقيه بعدم الملامة فلا فائدة من الأمر، والغرض البلاغيّ منه رفع اللّوم والعتاب؛ لأنّه يأتي في البيت الآخر ويقول:

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الملامَةَ نَفْعُهَا قليلٌ وَلَمْ يَكُنْ لَوْمِي أَخِي مِنْ شِمَالِيا

و. الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع: وذلك كقوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لَعِدَّتِهِنَّ﴾[64]، ففي الآية التفات من خطاب الواحد (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) إلى خطاب الجمع في قوله (طَلَّقْتُمُ) ، وهذا أمر تشريعيّ موجّه إلى النبيّ

– صلّى الله عليه وسلّم– فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعد النبيّ، والغرض من الالتفات هنا بيان حكم الله – سبحانه وتعالى– في خلقه، وتخصيص النداء به– عليه الصلاة والسلام– مع عموم الخطاب لأمّته أيضاً لتشريفه وإظهار مكانة منصبه، وتحقيق أنّه المخاطب حقيقة ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه– عليه الصلاة والسلام– إيّاهم وتغليبه عليهم[65]، ومنه قول عنترة بن شدّاد العبسيّ:

فَوَيلٌ لِكِسْرِى إِنْ حَلَلْتُ بِأَرْضِهِ وَوَيْلٌ لِجَيْشِ الْفُرْسِ حِيْنَ أُعَجْمِجُ[66]

فعنترة يذكر الملك كسرى وهيبته العظيمة وملكه القويّ، ليشدّ انتباه السامع أو المتلقّي لتلك العظمة والجبروت، ثمّ يلتفت فجأةً إلى كلمة الجيش التي تزيد من هيبة الموقف وقوّته أمام جيش تلك القبيلة الصغيرة التي ستنتصر بشجاعة فارسها على تلك العظمة، وبهذا يكون الالتفات من المفرد (كسرى) إلى الجمع (الجيش).

3. **المبحث الثالث:** الالتفات النوعيّ (الضميريّ):

هذا النوع ورد في الشعر كثيراً، كما وجدته في بعضٍ من آي القرآن الكريم، وهو أن يقدّم المتكلّم في كلامه مذكورين مرّتين، ثم يخبر عن الأوّل منهما وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثاني إلى الإخبار عن الأوّل، وذلك كقوله – تعالى –: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيْدٌ﴾[67]، فانصرف عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن ربّه – تبارك وتعالى –، ثم قال منصرفاً عن الإخبار عن الرّب– عزّ وجلّ– إلى الإخبار عن الإنسان: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيْدٌ﴾، وهذا يمكن أن يلحق بالتفات الضمائر[68]، ويقع بين أنواع الضمائر وهو أكثرها شيوعاً، والضمائر تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي: التكلّم، والخطاب، والغيبة، ويمثّل كلٌّ منها في النصّ الشعريّ وظائف يستدلّ عليها تبعاً للعلاقات القائمة بينها[69]؛ أنّ تلك الضمائر يمكن أن تخرج من نطاقها المحدود داخل الجملة النحويّة التقليديّة، لتدلّ على نماذج جماليّة تتعلّق بأحاسيس المبدع ومشاعره؛ لأنّ الالتفات من الفنون ذات الأثر الفعّال في تنوّع أنماط الكلام تلبيةً لبواعث نفسيّة شتّى[70]، واستخدمه شعراء العرب قبل الإسلام كأحد التقنيات الأسلوبيّة التي تُظهر قدرة الشاعر على التصرّف والافتنان في وجوه الكلام، وممّا تجدر الإشارة إليه والذي يُعدّ كسراً للسياق اللغويّ التنوّع والتفنّن في استخدام الضمائر؛ لأنه يولّد عنصر

المفاجأة والتشويق لدى السامع؛ لأنّ السياق إذا ما استمرَّ وفق نسقٍ بعينه سيكون سياقاً مشبعاً[71]، لذلك فإنّ الانتقال بين تلك الأساليب يُعدّ خروجاً عن المألوف، إلّا أنّه خروج يهدف إلى تحقيق إيحاءات متعدّدة لافتة لانتباه القارئ[72]، وهذ ما جعل القرآن الكريم معجزاً للغة العرب، والعرب قبل الإسلام استخدموا أنواع الالتفات الآتية:

أ. الالتفات من التكلّم إلى الخطاب، وقد ورد هذا النوع من الالتفات الضميريّ لأغراضٍ وغاياتٍ متعدّدةٍ منها النصح والإرشاد، والحثّ على فعل أمرٍ ما، والعتاب، واللوم والتحضيض، ودفع البلاء والعين، ومن أمثلة هذا النوع البديعيّ أنه قيل لتاجر: كم رأسُ مالك؟ فقال: إنّي أمينٌ وثقة الناس بي عظيمة، ففي هذا الالتفات كان ردّ التاجر حكيماً ولم يجب بما يترقّبه السائل؛ لأنّ السائل يسأل التاجر عن كميّة رأس ماله، فردَّ عليه التاجر بإجابة سؤال لم يسأله أو كان ينبغي أن يسأله وهو أعلم به أنّ في نفسه هذا السؤال، إذ بيّن له أنّ ثروته بأمانة ودليل ذلك أنّ ثقة الناس فيه عظيمة[73]، والغرض من الالتفات هنا الحرص على ثروته من العين والحسد. ومنه قول عنترة العبسيّ:

وَأَكُونُ أوّل فارسٍ يغْشَى الوغى فأقودُ أوّلَ فارسٍ يغشاها

يَا عَبْلَ كمْ مِن فارسٍ خَلَّيْتُهُ في وَسْطِ رابيةٍ يعدُّ حَصاها[74]

فالالتفات في البيت الأوّل قوله: (وأكونُ) للدلالة على الشجاعة والإقدام وعدم الخوف من الموت، ثمّ يلتفت في البيت الثاني من التكلّم عن نفسه مخاطباً صاحبته بقوله: (يا عبلُ)، والغرض من الالتفات هنا تخصيص نفسه بالفروسيّة دون غيره من الفرسان، أو كنحو قول طرفة بن العبد في معلّقته الرائعة:

رَأَيْتُ بَني غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

أَلاَ أَيُّهَذا الزَّاجِرِي أَحضُرَ الوَغَى وأَنْ أَشْهَدَ اللّذَاتِ هَلْ أنت مُخْلِدِي[75]

فالالتفات في البيتين قوله: (رأيتُ) التاء فيه للمتكلّم، (ألا أيّهذا الزاجري) موجّه للمخاطب، والغرض من هذا الأسلوب إلقاء العتاب واللوم على المخاطب، ففي البيت الأوّل قال: (رأيت) يقصد بني قبيلته (غبراء) حيث أنكروا معروفه وهجروه بسبب تبذيره للمال وإسرافه، فإنّ الفقراء من عامّة القبيلة لا ينكرون كرمه لهم، ولا الأغنياء الذين استطابوا صحبته ومنادمته، ثمّ يلتفت إلى الذين يلومونه بقوله: (ألا أيّهذا الزاجري) في أسلوبٍ استنكاريٍّ محضٍ تداخلاً مع أسلوب الاستفهام الذي يفيد الجحود، أي أنّه إذا ما ترك الحرب

وانشغل بالملذّات، فهل ذلك سيصرف عنه الموت فيكون خالداً (فهل أنت مخلدي)، ومنه قوله – تعالى – أيضاً مخبراً نبيّه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا* لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ﴾[76]، فانتقل من المتكلّم (فتحنا) إلى المخاطب (لِيَغْفِرَ لَكَ)، ولم يقل: (لنغفِرَ لكَ) ،ومنه قوله – تعالى – أيضاً: ﴿ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[77]، والأصل إليه أرجع فالتفت من التكلّم إلى الخطاب.

ب. الالتفات من المتكلّم إلى الغيبة كقوله – تعالى –:﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[78]، لم يقل: فصلِّ لنا، وهذا من روائع الالتفات القرآنيّ، ومنه أيضاً قوله – تعالى –:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[79]، فانتقل من التكلّم (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ)، إلى الغائب (وَرَسُولِهِ)، ولم يقل فآمنوا بالله وبي، وهذا من أسرار إعجاز القرآن وبلاغته. ومنه قول عنترة:

وأكُونُ أوّلَ ضاربٍ بمهنَّدٍ يفري الجماجمَ لا يُريد سوَاها

فالالتفات في قوله:(أكون) للمتكلّم، ثمّ الغيبة في قوله:(يريد سواها)، فتكلّم الشاعر عن نفسه مفتخراً بشجاعته وإقدامه وأنّه يضرب الأعداء ويكون في مقدّمة المحاربين، ثمّ عدل عن الغيبة فقال: إنّ سيفه قاطع بتّار يفري الجماجم، فكأنّ الجمجمة قطعة لحمٍ وليس عظماً، وهذا كناية عن حدّة السيف وقوّة الضرب عنده، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

سَئِمْتُ تَكَاليفَ الحَياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً لاَ أَبا لكَ يَسْأَمِ

فالالتفات جاء في قول الشاعر(سئمت) للمتكلّم، و(من يعش) للغائب، حيث تكلّم عن نفسه قائلاً سئمت تكاليف الحياة، ثم عدل عن الغيبة بقوله: (ومن يعش)، حيث أدرك الشاعر أنّ طول الحياة يُسئم الإنسان ويجعله كثير التفكّر والتدبّر خاصةً إن رأى من الحوادث ما جعله يملّ الحياة، فالتفت إلى الغيبة في الشطر الثاني تشويقاً لدفع السأم عن نفسه وعن المتلقّي وبالتالي لسماع الكلام واستدرار إصغائه إليه بحسن الإيقاظ، ومنه أيضاً قول عمرو بن كلثوم:

وَعَتّاباً[80] وكُلْثُوماً جميعاً بِهِمْ نِلْنا تُراثَ الأكْرَمِيْنا

فَصَالوا صَوْلَةً فِيْمَنْ يليهم وصُلْنا صَوْلَةً فِيمَن يَلِيْنَا[81]

فقد انتقل من المتكلّم إلى الغيبة إلى المتكلّم كما يلي: بهم (هم) ضمير متّصل للغائبين، نلنا (نا) ضمير للمتكلّمين، وفي البيت الثاني قوله: (فصالوا، يليهم) لجماعة الغائبين، (فصلنا، يلينا) للمتكلّمين، وقد استخدم الشاعر أسلوب الالتفات هنا لغرض الفخر وتمجيد نفسه وفرسان قبيلته، لكونهم قد ورثوا مجد عتّاب وكلثوم وبهم بلغوا مجد الأكارم، والمعنى: في ذلك اليوم هجمنا على عدوّنا هجمةً، كما هجم أبناء عمومتنا هجمةً فصالوا وصُلنا حتّى تمّ الأمر لنا[82].

ج. الالتفات من الخطاب إلى التكلّم، وذلك كقوله – تعالى –:﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[83]، فالالتفات هنا في ضمير المخاطب (قل لهم يا محمّد)؛ لأنّ الله– تعالى– نزّل نفسه منزلة المخاطب، وفي (رسلنا) للمتكلّم، وفي هذا النوع من الالتفات يُنتقل بالكلام من أسلوب الخطاب إلى الكلام كما ورد في الآية السابقة وفقاً لما يتطلّبه الموقف، أو الأفكار التي يطرحها الشّاعر في النصّ الشعريّ، كالنهي والأمر بترك شيءٍ ما؛ لأنّه إذا لزمهم ولم يتركوه يفضي بهم إلى شرٍّ عظيمٍ، كذلك الحثّ على أمرٍ ما، وذلك كقول الشاعر الحارث بن حِلزة:

فاترُكوا الطَّيْخَ والتعاشي وإمّا تَتَعَاشَوْا ففي التَّعَاشِي الدَّاءُ[84]

فالالتفات للمخاطب بضمير الجمع (فاتركوا)، إلى جواب التراخي والتكاسل وعواقبه بضمير الجمع أيضاً (تتعاشوا)، فهو ينصحهم بترك التكبّر والتجبّر والجهل، وإن لزموا ذلك ففيه الداء، يعني يفضي بهم إلى شرٍّ عظيمٍ، وهو من روائع الالتفات الذي يكون من ضمير الجمع إلى الجمع نفسه، ومن هذه الأفكار التخصيص كقول لبيد بن ربيعة:

فَاقْنَعْ بِما قَسَمَ الْمليكُ فَإنَّما قَسَمَ الْخَلائق بَيْنَنا عَلاَّمُها[85]

فالالتفات يكمن في قوله: (فاقنع) للمخاطب، و(بيننا) للمتكلّمين، إذ التفت الشاعر من أسلوب المخاطب المفرد الذي يقصد به الخصم، والغرض منه هنا التحقير والتصغير من شأن المخاطب، إلى جماعة المتكلّمين وفيه تعظيم لشأنهم، لكي يوحي للمتلقّي ما أراده من فخرٍ بقومه من خلال تخصيصهم وتمييزهم بالكمال والرفعة بين الخلائق، في حين أنّه حقّر العدو بالنقص والوضاعة، لذا يتوجّب عليهم القناعة بما قسم المليك لهم بما يستحقّون فذلك أصلاً هو نصيبهم وحظّهم من الدنيا.

د. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ويكون لغرض إقناع المخاطب أو التعظيم أو التحقير أو الجزاء وصدق الوعد، كقوله – تعالى –:﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[86]، فالالتفات انتقل من الخطاب إلى الغيبة، ولم يقل: يُطاف عليكم. ومنه أيضاً – تعالى –:﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[87]، في الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحد لكان غير كلام الله ولم يكن التفات أصلاً. ومنه أيضاً قوله–تعالى–: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[88]، فالالتفات ورد في قوله: (ادخلوا، أنتم، أزواجكم) ثمّ عدل بضمير الغائب في (عليهم)، ولم يقل (عليكم)؛ وذلك لعظم الجزاء والتشويق لما ادّخره الله للصالحين من عباده، ومنه قول عنترة العبسيّ:

يا شاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لهُ حَرُمَتْ علَيَّ ولَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ

انتقل عنترة من نداء المخاطب (يا شاة) إلى ضمير الغيبة في قوله: (له)، ولم يقل (لهم) لعفّتها وصون كرامتها، فالالتفات الضميريّ هنا لغرض التحسّر والتمنّي. يقول: يا قوم اشهدوا شاة قنص لمن حلّت له، فتعجّبوا من حسنها وجمالها فإنّها قد حازت أتمّ الجمال، والمعنى: هي حسناء جميلة مقنعة لمن كلف بها وشغف بحبها، ولكنّها حرمت عليّ وليتها لم تحرم عليّ، أي ليت أبي لم يتزوّجها، حتى تكون لي، وقيل أراد بذلك أنّها حرمت عليه باشتباك الحرب بين قبيلتيهما ثمّ تمنّى بقاء الصلح[89]. أو كقول امرئ القيس:

فَمِثْلِكِ حُبْلى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضعٍ فَأَلْهَيْتُها عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ[90]

فالشاعر تحوّل من ضمير الخطاب إلى الغيبة وذلك في (فمثلك) الكاف ضمير متّصل للخطاب، (فألهيتها) الهاء ضمير متّصل للغيبة، فاستخدم الشاعر الالتفات الضميريّ من أجل الإقناع، أي إقناع المرأة لكي تتحرّك مشاعرها ويلين قلبها، وهي ليست أوّل امرأة في حياته، فقد سبقتها الحبلى والمرضع، ومن شدّة جماله وشوق حديثه أنّه يُنسيها وليدها ويُلهيها عنه، وهذا أيضاً أسلوب الفخر والاعتزاز بالنفس وغرورها.

هـ. الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ويكون لغرض التنبيه أو التوبيخ أو اللوم أو العتاب أو السخرية والاستهزاء، أو المكافأة والجزاء الحسن، أو للتعظيم كما في قوله – تعالى –:﴿

وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾[91]، لم يقل كان لهم، فالتفت من ضمير الغائب في (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ) إلى الخطاب في قوله: (لكم)، وهنا تكمن روعة الالتفات، ومنه أيضاً قوله – تعالى –:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[92]، تتجلّى روعة الالتفات البديعيّ من الغيبة في قوله – تعالى –: (الَّذِي أَسْرَى) إلى الخطاب في قوله:( لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)، وغرضه تعظيم قدرة الله – تعالى –، أو كقول الأعشى[93]:

وَأَمَتَّعَني عَلى الْعَشا بِوَليدَةٍ	فَأُبْتْ بِخَيْرٍ مِنْكَ يَا هَوذُ حَامِدا[94]

يقول المبرّد: "فإنّه كان يتحدّث عنه ثمّ أقبل عليه يخاطبه، وترك تلك المخاطبة، والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب"[95]، ومنه قول الشاعر الحارث:

إِذْ تَمَنَّوْنَهُمْ غُرُوراً فَسَاقَتْ	هُمْ إِلَيْكُم أُمْنِيَّةُ أشْراءُ
لَمْ يَغُرُّكُمْ غُروُراً وَلكن	رَفَعَ الآلُ شَخْصَهُم والْضَّحاءُ[96]

يخاطب الشاعر بني تغلب إذ تمنّوا لقاء بني يشكر اغتراراً منهم بشوكتهم، والأشراء من الأشر وهو البطر والتجاوز في الفرح[97]، فاستخدم أسلوب الالتفات في البيت الأوّل في قوله: (تمنّونهم، فساقتهم إليكم) من الغيبة إلى الخطاب حيث الضمير (هم) ضمير متّصل للغيبة، و(كم) في إليكم ضمير متّصل للخطاب)، فالانتقال من الغيبة التي هي حكاية وقعت إلى الخطاب المباشر إنّما هو لغرض توجيه العتاب واللوم لكونهم اغترّوا بشوكتهم وعدّتهم فتمنّوا قتال العدو، فساقتهم إليهم أمنيتهم التي كانت مع البطر، ويدعمه قوله – تعالى –:﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أمّا البيت الثاني فأسلوب الالتفات كان بعكس البيت الأوّل ولكن للغرض نفسه، وهذا الأسلوب يجعل المتلقّي أكثر استثارةً وتنبّهاً، مفعماً بالمشاركة والحيويّة[98] لتقبّل النصّ وفهمه، فقوله: (لم يغرّوكم) أي لم يأتوكم على غرر ولا فجأة، إنّما أتوكم مسحرين في قوله الآل وهي وقت الغداة والعشي[99]، وقد جمع امرؤ القيس ثلاثة من أنواع الالتفات السابقة الذكر (انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، وانصراف المتكلّم من الإخبار إلى التكلّم، وانصراف المتكلّم عن التكلّم إلى الإخبار) في ثلاثة أبيات متوالية، فأنشد:

تَطَــاوَلَ لَيْلُــكَ بِالأَثْمَــدِ          وَنَـامَ الخلـيّ وَلَـمْ تَرْقُــدِ
وَبــاتَ وَبَاتَـتْ لَـهُ لَيْلَــةٌ          كَلَيلـةِ ذي العَاثِـرِ الأَرْمَدِ
وَذَلـكَ مِـنْ نبــأٍ جاءَنـي          وَبُلِّغْتُـهُ عَن أبـي الأسـودِ (100)

فخاطبَ في البيت الأوّل، وانصرف عنه إلى الإخبار في البيت الثاني، ثمّ انصرف عن الإخبار إلى التكلّم في البيت الثالث على الترتيب، وذلك على عادة افتنانهم في الكلام، وتصرّفهم فيه؛ ولأنّ الكلام إذا نُقِلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه وإجرائه على أسلوبٍ واحدٍ، وقد تختصّ مواقعه بفوائد(101)، كقول جرير:

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِي الأراكَ فَشَاقَني    لا زلتَ فِي علل وأيكٍ ناضرِ(102)

فالغائب في الشطر الأوّل (الحمام) كما أخبر عنه الشاعر، لكنّه انصرف في الشطر الثاني عن الاستمرار في خطاب هذا الغائب، والتفت إلى مخاطبته بقوله:(لازلتَ في عللٍ وأيكٍ ناضرِ)، وذلك لغرض الدعاء للحمام وتشويق المتلقّي، وممّا ينخرط في هذا السلك الالتفات بالرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس، ومنه قوله – تعالى –: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فالالتفات في قوله – تعالى – : (وَزَيَّنَّا) بعد قوله: (ثُمَّ اسْتَوى)، وقوله: (فَقَضَاهُنَّ وَأَوْحَى)، والغرض من هذا الالتفات هو الردّ على بعض المشكّكين الذين يعتقدون أنّ النجوم ليست في السماء الدنيا، وأنّها ليست حفظاً ولا رجوماً، فلمّا صار الكلام إلى ههنا عدل عن خطاب الغائب إلى النفس؛ أنّه مهمة من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذِّبة والرد عليهم وبطلان معتقداتهم(103).

و. ومن الالتفات بالعدول عن مخاطبة النفس إلى مخاطبة الجماعة قوله – تعالى –:﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، فغرض الالتفات هنا الرحمة؛ لأنه يريد أن يتلطّف بهم ويداريهم ويريد لهم ما يريد لنفسه، فصرف الكلام عن خطاب النفس إلى خطابهم، وقد وضع قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان: (وَمَالَكُم لا تَعْبُدُون الّذي فَطَركُم)، وقال:﴿ وَإليْـهِ تُرْجَعَون﴾، ولم يقل (وإليـه أرجـع)، فعدل عن

مخاطبة نفسه إلى مخاطبتهم ونصحهم والتودّد إليهم من باب الرحمة. ومنه أيضاً قول طرفة بن العبد:

فَمَالـي أَرَانِـي وَابنَ عَمِّيَ مَالِكاً    مَتَـى أَدْنُ مِنْــهُ يَنْــأَ عَنّـي وَيَبْعُدِ
يَلُوْمُ وَما أَدْرِي علاَمَ يَلُوْمني    كَما لاَمَني فِي الْحَيِّ قُرْطُ بنُ مَعَبْدِ[104]

فروعة الالتفات تتجلّى عند الشاعر الجاهليّ طرفة في اللّوم والعتاب على ذنبٍ لم يقترفه غير أنّه أكرم كلّ محتاج، حتى نفد ماله، فسأل نفسه مالي؟، ثمّ صرف الكلام عن حديث النفس إلى خطاب ابن عمّه مالك وقرط بن معبد، فما لهؤلاء القوم الذين تربّوا على الكرم يجحدون ويبخلون، فجاء بأسلوب اللوم من باب جلب الاستعطاف والتودّد.

وقد تجلّى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في أوّل سورةٍ من سور القرآن وهي سورة الفاتحة في قوله – تعالى –:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ * مَالَكِ يَوْمِ الْدِّيْنِ﴾ فهذه الآيات فيها أسلوب الغيبة ثمّ التفت عنه قوله – تعالى –: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْن﴾ إلى أسلوب الخطاب، والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ ثمّ قوله: ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ﴾ إلى قوله – تعالى –: ﴿ مَالِكْ يَوْمِ الْدِّيْن﴾ إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداءً من قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، إلى آخر السورة، وهذا فنٌّ بديعٌ من فنون نظم الكلام البيانيّ عند العرب، وهو المسمّى في علم الأدب العربيّ والبلاغة التفاتاً[105]، فإنّ الحامد لما حمد الله – تعالى – ووصفه بعظيم الصفات وقد بلغت به الفكرة منتهاها تخيّلَ نفسه في حضرة الربوبيّة فخاطب ربّه بالإقبال والتعظيم، وممّا يزيد الالتفات وقعاً في الآية أنّه تخلّص من الثناء إلى الدعاء، ولا شكّ أنّ الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تخلّصاً يجيء بعده ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والفائدة والغرض منه الدلالة على الصدق والإخلاص، وأمّا الانتقال إلى الخطاب فإنّه دليل على الخضوع والضراعة، وشدّة الرغبة كما يقول الشخص في خطاب الملك (أنا شاكر للملك المعظّم الجواد، بك أيّها الملك المنصف بهذه الصفات أستعين على قضاء أموري وإليك ألجأ)، فإنّ أسلوب الخطاب أخصّ من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخصّ في ذكر الفعل الأخصّ[106]. ومنه قول دريد بن الصمّة[107]:

وَهَلْ أَنَا إلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ    غَوَيتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

فالالتفات يبدأ بحديث النفس وهل أنا إلّا من هذه القبيلة أكانت على صوابٍ أم خطأ، فهو رجلٌ منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، ثمّ يلتفت إلى القبيلة ليقول إلّا من غزيّة قبيلتي إن سرتم في الغواية أو الهداية فأنا معكم وبكم، وهذا من باب التعاطف والرحمة بأخيه وقومه.

وقد تجتمع في مكانٍ واحدٍ أنواع لطيفة من الالتفات، كما في قول الله – تعالى – : " وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ"[108] فالالتفات هنا انتقل فيه من فعل الأمر إلى المضارع، ثمّ من الجملة الفعليّة إلى الجملة الاسميّة، ومن المضمر المتبادر إلى الظاهر في موضعين.

**خاتمـــة ونتائـــج:**

1. أسلوب الالتفات يختصّ باللغة العربيّة دون غيرها، ولذلك يسمّى بشجاعة العربيّة؛ لأنّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره.
2. من أهمّ أغراض الالتفات رفع السآمة الناتجة من الاستمرار على ضمير متكلّم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، ومن المتكلّم إلى الخطاب أو الغيبة، أو الانتقال بالأعداد والضمائر فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض؛ لأنّ الكلام المتوالي على ضميرٍ واحد لا يُستطاب.
3. الالتفات يزين الكلام ويطريه، وينشط السامع، ويسترعي انتباهه، فيكون الكلام أوقع في قلبه، وأطرى في سمعه.
4. من براعة هذا الأسلوب التفنّن في الانتقال من أسلوبٍ إلى آخر لتنبيه السامع وتشويقه والانتقال به من الضجر والملل والسكون إلى النشاط والمشاركة والانتباه.
5. يختصّ كلّ موضعٍ من مواضع الالتفات باختلاف محلّه وما يقصد المتكلم.
6. يُعدّ الالتفات ضرورة من ضروريّات الشعر؛ وذلك لما يمتلكه من مرونةٍ تجعله مناسباً للتحوّل من حالةٍ إلى أخرى دون التأثير في الكلام أو المتكلّم.
7. إذا حَسُن استخدام أسلوب الالتفات في الشعر أو الحديث العامّ فهو ضربٌ بارعٌ من الصياغة، ينطوي على قدر من التمويه الناتج عن كسر سياق التوقّع لدى المتلقي، وذلك في التحوّل من جهةٍ إلى أخرى، وتتّخذ معه الحقائق أشكالاً لها معانٍ مختلفة،

لهذا أكثر شعراء العصر الجاهليّ من استخدامه لبراعتهم في حسن التلاعب بمجريات وأفانين الكلام.

8. استطاع كثيرٌ من الشعراء عن طريق أسلوب الالتفات أن ينقلوا لنا العديد من أحداث عصرهم، وكيفيّة تعاملهم مع مواقف الحياة المختلفة.
9. منح الالتفات الزمنيّ النصوص مرونةً أكثر، وانعكس ذلك على استقبال المتلقّي للتغيّرات والتحوّلات الزمنيّة التي وردت في الآيات والشعر لإثبات أمرٍ أو نفيه أو الترغيب فيه أو الترهيب منه حيث انساق المتلقّي خلف هذا الالتفات الرائع دون خوفٍ أو مللٍ.

**التوصيـــات:**

1. من خلال دراستنا لأسلوب الالتفات تبيّن لنا مدى غور هذا الأسلوب وروعته لمن يريد أن يتفنّن فيه ويردّ على خصمه، خاصةً إذا كانت له دراية بتفاسير القرآن والشعر العربيّ القديم، وقد رأينا أنّه مازال بحاجةٍ كبيرةٍ للبحث والدراسة والتقصّي وصولاً إلى أبرز الأهداف من تلك النصوص التي لم يتّضح فيها أسلوب الالتفات، ومقدار تأثيرها وتأثّرها وانعكاسها على المتلقّي.
2. لابدّ من زيادة الدراسة الشعريّة والنثريّة التي تحوي هذا الأسلوب لبيان تلاعبه بالأزمنة والأعداد والضمائر؛ لأنّ الدراسات الأدبيّة خاصّةً تكمن في مواضيع الأدب المختلفة، وقد انصرفت عن مواضيع البلاغة العربيّة التي تُعدّ أهم مصدر لفهم اللغة العربيّة وانعكاساتها والمحافظة عليها.

**الهوامش:**

(1) أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، إسلام ويب، ص 26، منشورات دار المعرفة 2012.

(2) علم البديع، د. محمود حسن أحمد حسن المراغي، دار النهضة العربيّة. بيروت، ط2: 1999م، ص104.

(3) سورة البقرة: آية1، القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم بالرسم العثمانيّ، شركة الهناء للطباعة، 2013/2/25- 22 ربيع الأول، 1433هـ.

(4) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار الآفاق، القاهرة، ط1/1420هـ- 2000م، ص110.

(5) ابن المعتزّ وتراثه في الأدب والنقد والبيان، د. محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط: 1411هـ- 1991م، ط2: 1999م، ص 581.

(6) سورة يونس: 22.

(7) المثل السائر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمّد المعروف بابن الأثير الجزريّ، تح: محمّد محيي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، ص 170.

(8) علم البديع، المراغي، ص105.

(9) ينظر: ديوان جرير بن عطيّة الخطفى، ص417، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ- 1986م.

(10) البشام شجر ذو ساق وأفنان وورق ولا ثمر له. ينظر: علم البديع، ص 110.

(11) ينظر: ابن المعتزّ، د. محمّد عبد المنعم خفاجي، ص 581.

(12) ينظر: علم البديع، 112.

(13) ينظر: لسان العرب، لمحمّد بن مكرم بن منظور، منشورات دار صادر، بيروت، ط1، 325.

(14) سورة هود: آية 81.

(15) سورة يونس: آية 78.

(16) صُلاة الحرب: بضمّ الصاد، أي الذين يصلون نار الحرب، وهي جمعُ صالٍ، بادن: يريد أن يقول أنّ المحارب ضامر، أي خاوي البطن من الأكل ضعيف، والمسالم بادن أي بطنه مليئة بالطعام. ينظر: علم البديع للمراغي، ص 106.

(17) نقلاً من: علم البديع، د. محمود أحمد حسن المراغي، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1999، ص 104، نقلاً من: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، ص 58.

(18) علم البديع، محمود المراغي، ص 104.

(19) ينظر: علم البديع، د. محمود المراغي، ص 104.

(20) سورة القيامة: آية 33،34.

(21) سورة البقرة: آية 30.

(22) سورة عبس: آية 1-2.

(23) علم البديع، محمود المراغي، ص 106.

(24) الغَلل: الماء الذي يجري بين الشجر، والأيك: الشجر الكثير الملتفّ، والواحدة أيكة. ينظر: ديوان جرير بن عطية الخطفي ( 653-732م)، ص 236، ط: 1406هـ-1986م، دار بيروت للطباعة والنشر.

(25) ديوان جرير، ص 236 ، راح: قاع في طريق مكّة إلى البصرة.

(26) سورة التحريم: آية 3-4.

(27) ينظر: علم البديع، محمود المراغي، 107.

(28) ينظر: أسلوب الالتفات في القرآن، إسلام ويب، مقال بحثي، تاريخ النشر 26-12-2012م.

(29) سورة الدخان: آية 4-6.

(30) ينظر: أسلوب الالتفات في القرآن، ص 15.

(31) سورة الأعراف: آية 29.

(32) المثل السائر، 12/2 بتصرف يسير.

(33) سورة هود: 53- 54.

(34) يُنظر: ديوان طرفة بن العبد البكريّ، شرح الأعلم الشمنتري، تح: دريّة الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربيّة، دمشق1975م، ص 31.

(35) ينظر: الزمن في الشعر الجاهليّ، د. عبد العزيز محمّد شحاده، ط دائرة المكتبة الوطنيّة، 1995م، ص 133.

(36) البقرة: 87.

(37) ينظر الكشاف، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، تح: د. عبد الرزّاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت،1/ 189 بتصرّف يسير.

(38) النمل: 87.

(39) ينظر: الكشّاف: 3/ 391.

(40) المثل السائر: 2/ 15.

(41) ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ص30، ومرّة: هو ابن كلثوم أخو عمرو، السّفّاح: هو سَلَمَة بن خالد بن زهير بن كعب، رئيس تغلب في يوم الكلاب الأوّل.

(42) سورة البقرة: آية 38.

(43) ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، عبد القادر محمّد مايو، مراجعة: أحمد عبد الله فرهد، دار القلم العربيّ، حلب، سوريا، ط1، 1419-1999م/ ص 77، والظعينة: المرأة في الهودج، وقد أُطلقت فيما بعد على المرأة، والزوجة، والترخيم: هو حذف آخر حرف من الاسم المنادى تحبّباً.

(44) ومن الالتفات الفعليّ في معلّقته نفسها قوله: ورثنا ونورثها: 150، ملأنا، نملؤه: 127.

(45) ديوان عمرو بن كلثوم، 85.

(46) ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، تقديم وترتيب وشرح: عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربيّ، ط1/ 1419هـ- 1999م.

(47) سورة الواقعة: آية18.

(48) سورة البقرة: آية 38.

(49) ينظر: شرح ديوان عنترة بن شدّاد، المكتبة الثقافيّة، بيروت، لبنان، د.ت، ص119.

(50) ينظر: مجلّة البيان، عبد الله الأنصاريّ، 2014.

(51) سورة الطلاق: آية 1.

(52) شرح المعلّقات السبع،131.

(53) سورة يونس: آية 87.

(54) ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ص 29.

(55) سورة يونس: آية 78.

(56) روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ج1/ 131.

(57) ينظر التحرير والتنوير، لمحمّد طاهر بن عاشور، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 2052/1.

(58) البيت لعبد يغوث الحارثي.

(59) سورة طه: آية 117.

(60) سورة طه: آية 49.

(61) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمّد بن محمّد العمادي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 20/6.

(62) * تروي كتب التفاسير أنّ النبيّ موسى–عليه السلام– عندما كان صغيراً يربى في بيت عدوّه فرعون الذي جاء يوماً ليقبّله فأشاح الطفل بوجهه عن فرعون فغضب، وقال: لأقتلنَّه، فأشارت عليه زوجته آسيا أن يقدّم له ناراً وتمراً، فإن اختار التمر فهو يعلم وإن اختار النار فهو لا يعلم، فأوحى الله– تعالى– إلى نبيّه أن يختار النّار التي أدخلها في فمه فأصابته لثغة من يومها. والله أعلم.

(63) البيت لعبد يغوث الحارثيّ، وقد وقع في أسر أعدائه ورفضوا أن يفتدي نفسه بمالهِ وأصرُّوا على قتله.

(64) سورة الطلاق: آية1.

(65) إرشاد العقل السليم، 8/ 260.

(66) ينظر: شرح ديوان عنترة، المكتبة الثقافيّة، بيروت، لبنان، د.ت، ص21، وعجمج: رفع صوته وصاح، يعني ويلٌ لهذه الجيوش النازعة علينا من الشمال التي تريد اغتصاب وطننا المحبوب، حين أقف في ميدان القتال وأهتف فيهم بلغة الحماس، وويلٌ لذلك الملك صاحب الجيوش الباغية إن أتيت مملكته ونزلت بأرضه.

(67) سورة العاديات: آية 6.

(68) بديع القرآن، لعبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الأصبع العدواني، تح: حنفي محمّد شرف، مكتبة نهضة مصر، ط1، 1377هـ - 1957م، 45.

(69) ينظر: اللغة الشعريّة: ص185.

(70) فنّ الالتفات في مباحث البلاغيّين، جليل رشيد فالح، المكتبة العصريّة، 65.

(71) ينظر أسلوبيّة البناء الشعريّ، أرشد عليّ محمّد، 102-103، وينظر: الأسلوبيّة، د. فتح الله أحمد سليمان، 229.

(72) ينظر الانزياح في أنشودة المطر لبدر شاكر السيّاب، لسعدون محسن إسماعيل الحيثي، ص91( رسالة ماجستير)، منشورات كليّة العلوم الإنسانيّة، جامعة بغداد/2003م.

(73) ينظر: علم البديع، محمود المراغي،107.

(74) شرح ديوان عنترة، 156.

(75) شرح المعلقات السبع، للزوزني، صفة الأرض جُعلت كالاسم لها، الطراف: البيت من الأدم، والجمع الطروف، وكنّى بتمديده عن عظمه، 86، والوغى: أصله صوت الأبطال

.في الحرب ثم استعيرت للحرب ذاتها. الخلود: البقاء. ينظر: شرح المعلقات العشر، مفيد قميحة، ص 115.

(76) سورة الفتح، آية1.

(77) سورة يس، آية 22.

(78) سورة الكوثر، آية2،1.

(79) سورة الأعراف، آية 158.

(80) عتّاب: جدّ والد عمرو بن كلثوم، وكلثوم: هو كلثوم بن مالك بن عتّاب والد الشاعر. والتراث: الميراث والحسب. ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ص 69.

(81) ديوان عمرو بن كلثوم، تقديم وترتيب وشرح: عبد القادر محمّد مايو، مراجعة: أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربيّ، سوريا، حلب، ط1، 1419هـ- 1999م، ص 80.

(82) شرح المعلقات السبع، ص 109.

(83) سورة يونس: آية21.

(84) شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 200-201.

(85) ينظر: الشعر والشعراء الدينوريّ، مطبعة بيروت، ط1، 1964م، وطبعة محقّقة بشرح أحمد محمّد شاكر، دار المعارف بمصر، ج1/ ص 88، وشرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها، للشنقيطي، نشر دار الأندلس، بيروت، 120.

(86) سورة الزخرف: آية71،70.

(87) سورة يونس: آية 22.

(88) سورة الزخرف: آية 70- 71.

(89) شرح المعلقات السبع، للزوزني، 126 بتصرّف يسير.

(90) ينظر: ديوان امرئ القيس، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط4، د.ت، ص29.

(91) سورة الإنسان: آية22،21.

(92) سورة الإسراء: آية1.

(93) الأعشى: هو ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائليّ، أبو بصيرة، المعروف بأعشى قيس توفي سنة629م.

(94) ينظر: علم البديع، محمود المراغي،105.

(95) علم البديع، محمود المراغي، 105.

(96) شرح القصائد التسع المشهورات، صنعة أبي جعفر أحمد بن محمد النحّاس المتوفى سنة 328هـ، تح: أحمد خطّاب، القسم الثاني، دار الحريّة للطباعة. بغداد،1393هـ-1973م/ ص 596- 597.

(97) المصدر نفسه والصفحة.

(98) النقد الأدبيّ ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمن، ترجمة: د. إحسان عبّاس، د. محمّد يوسف نجم، ج2، ص 147.

(99) شرح القصائد التسع،597.

(100) البلاغة العربيّة تأصيل وتجديد، د. مصطفى الصيّادي الجويني، منشأة المعارف. الإسكندريّة 1985م، ص186.

(101) ينظر: المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآنيّ، د. أحمد جمال عمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1410هـ- 1990م، ص188.

(102) العلل بفتح العين واللام: الشرب بعد الشرب تباعاً، والأيك شجر، الواحدة أيكة، ويقال: شجر من الأراك. ينظر علم البديع/ 110.

(103) ينظر: علم البديع، 114 بتصرّف يسير.

(104) ينظر: شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص86، يقول: يلومني مالك وما أدري ما السبب الداعي إلى لومه إياي، كما لامني هذا الرجل في القبيلة، يريد أنّ لومه إيّاه ظلم صراح كما كان لوم قرط إياه كذلك.

(105) التحرير والتنوير، محمّد طاهر بن عاشور، الدار التونسيّة للنشر، تونس،102/1.

(106) الأكسير في علم التفسير، ص 141 بتصرف يسير.

(107) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربيّ، حنَّا الفاخوري، دار الجيل، 1958م، ص226، واسمه دريد بن الصِّمَّة الجشميّ (توفّي نحو سنة630) عمَّر حتّى تجاوز المائة، وخطب الخنساء فردّته فهجاها، وأدرك الإسلام لكّنه لم يُسلم، قيل إنّه غزا مئة غزوة وما أخفق في واحدةٍ منها، شعره رفيع وأكثره في الفخر والحماسة والحكمة.

(108) سورة البقرة: آية 282.